مجلة المعارف للبحوث و الدراسات التاريخية
https://www.asjp.cerist.dz/en/PresentationRevue/111
ISSN: 2437-0584/ EISSN: 2437-0584
المجلد الثامن ،العدد الأول ،أكتوبر ،2022 ص - ص:156-172

قراءة في الجغرافيا السياسية لكتاب أفريقيا في القرن العشرين من خلال القارة المستعمرة

reading in the political geography of the book Africa in the twentieth century through the colonial continent

أ.د.حنيفي هلايلي(*)
جامعة سيدي بلعباس، (الجزائر)، hanifi_andalous@yahoo.fr

تاريخ الاستلام: 21 /2021/12 تاريخ القبول: 25 /2022/06 تاريخ النشر: 11 /2022/10

الملخص

تعد هذه الدراسة ترجمة مختصرة و مراجعة لكتاب المؤرخ الكونغولي إليكيا مبوكولو *(Elikia M'Bokolo)* أفريقيا في القرن العشرين من خلال القارة المستعمرة. حاول المؤرخ الكونغولي في كتابه أن يعيد قراءة منظومة البحث التاريخي لأفريقيا عبر قراءة مقارنة، من خلال تقديم مسرد تاريخي و جغرافي، حلل فيه الكتاب في تسعة فصول،أطرها بمؤشرات توضيحية ذات بعد جغرافي. كما عالج الكتاب تاريخ القارة الأفريقية مع التركز على هدفين إجرائيين هما: تحليل الأوضاع من الداخل بواسطة رصد المحطات الكبرى للمناطق الجغراسياسية للقارة.

اعتمد الكاتب من خلالها على الأحداث التاريخية البارزة بطريقة تحليلية، ومن جهة أخرى طرح القضايا التي تعاني منها القارة وسط التحولات السياسية و الاقتصادية و الاجتماعية.

و سجل في السياق نفسه مسألة هشاشة تعامل النظام الاستعماري مع الأفارقة.

الكلمات الدالة: أفريقيا ؛ الاستعمار الأوروبي ؛ القارة المستعمرة ؛ الجغرافيا السياسية.

Abstrac:

This study is a brief translation and review of the book of the Congolese historian Elikia M'Bokolo, Africa in the Twentieth Century through the Colonial Continent. In his book, the Congolese historian tries to re-read the system of historical research in Africa through a comparative reading, by presenting a historical and geographical glossary, in which the book is analyzed in nine chapters, framed by illustrative indicators with a geographical dimension.

The book also dealt with the history of the African continent with a focus on two procedural objectives: analyzing the situation from the inside by monitoring the major stations of the continent's geopolitical regions, through which the writer relied on the prominent historical

* المؤلف المرسل.

events in an analytical way, and on the other hand, raised the issues that the continent suffers from amid political and economic transformations and social. In the same context, he recorded the issue of the fragility of the colonial regime's dealings with Africans.

Keywords: Africa; European colonialism; colonial continent; geopolitics.

مقدمة:

تعد دراسة تاريخ أفريقيا ظاهرة حديثة في مراكز البحث و الجامعات العالمية، خاصة البلدان الفرنكوفونية، باعتبار أن القارة السمراء ارتبطت ردحا من الزمن بالاستعمار الفرنسي لمعظم دولها، يضاف إليها دول أوروبية أخرى. لايزال الاستعمار الإمبريالي الغربي، الذي عرفته القارة الأفريقية في القرن التاسع عشر، يُشكل منجماً خصباً، يغوي مستقطباً باحثين أكاديميين في كل المجالات والتخصصات، سواء ما اختص بالجانب التاريخي منها أو بالجانب العلمي، على اختلاف مناهجها وتباين أهدافها. ففي عامي 1884 و 1885، أضفى مؤتمر برلين الطابع الرسمي على الاستعمار الأوروبي لأفريقيا. كان القرن التاسع عشر موطنا للثورة الصناعية، في وقت كانت فيه العديد من الدول الأوروبية مزدهرة في قطاع التكنولوجيا في ذلك الوقت. ومع ذلك، من أجل تحقيق هذه التطورات، كانوا بحاجة إلى مصدر ثابت لتوريد المواد الخام. لاحظت القوى الأوروبية أن الكثير من هذه المواد الخام كانت وفيرة في إفريقيا. كان القرن التاسع عشر موطنا للثورة الصناعية، في وقت كانت فيه العديد من الدول الأوروبية مزدهرة في قطاع التكنولوجيا في ذلك الوقت. ومع ذلك، من أجل تحقيق هذه التطورات، كانوا بحاجة إلى مصدر ثابت لتوريد المواد الخام. لاحظت القوى الأوروبية أن الكثير من هذه المواد الخام كانت وفيرة في إفريقيا.

تهدف هذه الدراسة إلى تبيان أهمية كتاب مبوكولو[1] من الناحيتين التاريخية و السياسية، ودور الباحثين الأفارقة في تدريس تاريخ القارة الأفريقية في العالم الأوروبي، بوجهة نظر وطنية.كما يعتمد هذا البحث في تحليل مباحثه على المنهج التاريخي بأدوات الأرقام و الإحصائيات.

إفريقيا: ظاهرة الاستعمار الجديد

لقد اهتمت الدول الأوروبية بدراسة تاريخ أفريقيا من جوانب عدة، أهمها تاريخ الإرساليات التبشيرية، و تاريخ المكتشفين، و البحث في فترة الاحتلال .و إذا أردنا تقويم الاستعمار الأوروبي نجد أن هناك سبع دول أوروبية استعمرت القارة، وهي : بريطانيا، فرنسا، إسبانيا، البرتغال، إيطاليا، بلجيكا، و ألمانيا. كما يلاحظ وجود فروقات بينية بين سياسات الدول الاستعمارية في أفريقيا، من خلالها يمكن تحديد طبيعة و خصائص كل استعمار.

و على قاعدة هذا التقديم طرح الباحث السوري صباح كعدان قراءة جديدة كمؤشر جغرافي عن القارة ما نصه :" من البحر المتوسط حتى الرجاء الصالح و من شواطئ المحيط الأطلسي حتى شواطئ المحيط الهندي، لا شيء يعادل اتساع القارة الأفريقية سوى تنوعها."[2] كانت الدول الأوروبية الاستعمارية تحاول تسويغ احتلالها لأفريقيا على أساس أنها تساهم في تمدين شعوبها البربرية التي عاشت حياة الفوضى و للاستقرار ردحا من الزمن، هذا التسويغ قد أتى بعد الاحتلال و التكالب الإمبريالي على القارة حيث وقع ما بين الفترة الممتدة ما بين عام 1885 و نهاية الحرب العالمية الثانية[3].

كانت الدول الاستعمارية في بداية القرن العشرين تسيطر على 11 % من أراضي أفريقيا سنة 1875، ولم تكن سوى ثلاث دول مستقلة: الحبشة(أثيوبيا)، و ليبيريا،و المغرب، الذي

كان موضع تنافس فرنسي- إسباني، و طبقت عليه سياسة الحماية المزدوجة سنة 1912. و خلال هذا الزخم التنافسي أعاد الأوروبيون تقسيم القارة الأفريقية، وفق خارطة جغراسياسية ،أنتجت بموجبها دول جديدة من دون استشارة الأفارقة. و هذا من خلال مؤتمر برلين المنعقد خلال الفترة الممتدة من 15 نوفمبر 1884 إلى 26 فبراير 1885. كانت مسألة الكونغو موضوع أول مؤتمر دولي استعماري جمع في برلين مندوبين عن ثلاث عشرة دولة أوروبية بالإضافة إلى الولايات المتحدة الأمريكية[4].

لقد رسمت معظم حدود القارة الأفريقية على طاولة المفاوضات في برلين، و في سنة 1890 انعقد مؤتمر بروكسل و أيد قرارات المؤتمر و قسمت القارة إلى مناطق نفوذ بين الدول الأوروبية، كما اتسمت هذه المفاوضات بالتخطيط العشوائي للحدود، حيث ظهرت في أفريقيا ستة و أربعين وحدة سياسية بعد الحرب العالمية الثانية، منها 13 وحدة سياسية لا توجد لها منافذ إلى البحر، بينما عدد الدول الداخلية في العالم كله بدون أفريقيا هي أحد عشر دولة في أوروبا و آسيا و أمريكا الجنوبية، و مما يلاحظ على هذه القرارات أنها كانت سرية و لم تعط للأفريقيين أي اعتبارات [5]. وقد عبر المؤرخ الفرنسي المختص في الدراسات الأفريقية إيف بيرسون (Yves Person) (1925-1982)حول أجواء هذا المؤتمر ما نصه:" كانت أفريقيا في وضع جعلها قابلة للاستعمار في اللحظة التي كان الظرف الخاص في أوروبا قد سرع في إدخالها في العصر الاستعماري. " [6] و في نفس السياق عبر مبوكولو عن نتائج أشغال المؤتمر و سماه بأسطورة الأزمة[7].

تكمن الاختلافات بين طرائق الإدارتين الفرنسية و البريطانية في القارة من خلال منح السلطات التقليدية سلطات تنفيذية. و قد أعلن الفرنسيون أن الإفريقيين قادرون على استيعاب الثقافة الفرنسية، وذهب الإنجليز في نظرتهم إلى الإفريقيين مذهبا مغايرا ،إذ رأوا أن

ليس بإمكانهم أن يصبحوا إنجليز سود البشرة، و إن محاولتهم لتقليد السلوك البريطاني كان مدعاة للسخرية ، ومن ثم عليهم أن يؤسسوا ثقافتهم الخاصة بهم. أصبحت حدود القارة الأفريقية ثابتة نتيجة تقسيمها من طرف النظام الاستعماري الذي أعاد توزيع سكان القارة داخل وحدات سياسية جديدة، مما أدى إلى تمزيق الوحدة الثقافية لشعوب القارة،

و استعمل النظام الاستعماري لهذا الغرض ، ثلاثة أوجه للنظام التمييزي: الاستعباد، الإدماج و المشاركة.

جاء التقسيم الإداري استجابة لاهتمامات متماثلة لجميع الدول الاستعمارية التي أقامت بنيات متراتبة تتيح لها الرقابة بسهولة على المجتمعات و الأشخاص، و تعلقت بالعلاقات بين كل بلد مستعمر و عاصمة الدولة الاستعمارية التي يتبع لها أكثر مما تعلقت بتنظيمها الداخلي[8]. كانت أهم نتيجة من نتائج تقسيم القارة الأفريقية الاستعماري هي إعادة توزيع السكان داخل وحدات سياسية جديدة، و قد أدى توزيع شعب واحد بين عدة بلدان إلى تمزيق وحدته الثقافية. وقد ارتبط تاريخ التقسيم بمؤتمرات دولية و لقاءات بين دبلوماسيي البلدان المتنافسة و قادتها دون أخذ رأي الأفارقة بالحسبان.

أقدم الأوروبيون على تصنيف الأفارقة إلى عدة فئات و خاصة في جنوب أفريقيا(السود، الهنود، الملونون)، أما البيض الأوائل وهم مستوطنون هولنديون، أو البوير (الأفريكانز).فقد ظهرت ردود الفعل الوطنية الأولى ضد النظام الاستعماري في منعطف القرن العشرين، عبر عنها أفراد و مجموعات، و في واقع الأمر أن المبادرين فيها تأهلوا تأهيلا أوروبيا و مشبعين بالثقافة الغربية، و لاسيما بثقافة دولهم الاستعمارية، و برهنوا على اهتمامهم بتحديث أوطانهم، و طالبوا بالمساواة في الحقوق. فمثلا في الجزائر ، عبرت جمعية الشباب الجزائري عن مطالب المثقفين، وعبروا عن أنفسهم بواسطة الصحافة مثل الاتحاد الفرنكو جزائري

الذي تأسس في مدينة الجزائر سنة 1919، و كان شعار أحد صحفهم و هي المصباح:" العرب من أجل فرنسا، و فرنسا من أجل العرب" (9).

.لقد دعم هؤلاء الشبان مشروع التجنيد الإجباري، و في الوقت نفسه ، طالبوا بإلغاء عدم المساواة الضريبة، و تطوير التعليم الابتدائي، و إلغاء نظام الأنديجانا(الأهالي)، وتوسيع التمثيل السياسي للجزائريين. لكي نفهم النزعة القومية في أفريقيا ينبغي أولا أن نفرق بين التعبير عن القومية الأوروبية ابتداء من القرن التاسع عشر و بين التعبير عنها في أفريقيا المستعمرة في فترة ما بين الحربين العالميتين، فقد كانت القومية في أوروبا تعبيرا عن رغبة الجماعات التي قبلت واقع الهوية الثقافية المشتركة المعترفة بماض تاريخي مشترك، في وجود مستقل يتمتع بالسيادة في اطار تنظيمات سياسية(دول) خاصة بها، كما دلت على ذلك امثلة في ايطاليا و ألمانيا فإن ما تمخض عن الحركات القومية كان في نهاية المطاف ،الأمم– الدول. و في افريقيا كانت تطلعات الدول و المجموعات التي حاربت القوى الإمبريالية الأوروبية، ممثلة في توجهات الصفوة الأفريقية المتزعمة التي تشكلت جزئيا بحسب الشكل الذي يتخذه الحكم الاستعماري، فالقوة الدافعة للقومية الأفريقية ليست، في الكثير من الحالات الوعي بالانتماء لوحدة سياسية ثقافية متميزة تسعى لحماية نفسها، بل هي حركة لمجددين من ذوي الوعي القومي، يسعون إلى إيجاد قوميات سياسية و ثقافية من بين الشعوب المختلفة فيما بينها داخل الحدود المصطنعة التي فرضها السادة الأوروبيون.

لم يؤثر الاستعمار فقط على الصفوة المتعلمة و الحكام التقليديين. فمن الخطأ النظر إلى النزعة الوطنية الأفريقية في فترة ما بين الحربين على أنها ظاهرة خاصة بالصفوة و المدن، فالأبحاث التي جرت مؤخرا تدل بصورة متزايدة على أن قدرا كبيرا من السخط و الشعور المعادي للاستعمار قد ظهر في المناطق الريفية نتيجة للإجراءات الاقتصادية و المالية الجديدة، و

لنظام الإدارة القضائية، و نتيجة كذلك ، للكساد الاقتصادي الذي حدث في الثلاثينيات من القرن العشرين .

أفريقيا بين الاستعمار والاستنزاف والاستلاب:

بالنسبة لسياسة الاقتصادية الاستعمارية، تبنت جميع الدول الاستعمارية مبدا أساسيا مفاده هو ألا تكلفها المستعمرات شيئا، و أفاد مبدأ ثان بأن على المستعمرات أن تكون مصادر منفعة. فالاقتصاد أصبح مكرس لإنتاج المواد الأولية و موجه باتجاه إرضاء الدول الصناعية. إن ولوج الدول الأفريقية إلى الاستقلال و تحررها من السيطرة الاستعمارية منح متنفسا جديدا للجامعة افريقية، إذ أن فكرة الوحدة الأفريقية التي تعود أصول نشأتها إلى نهاية القرن التاسع عشر، خلال المؤتمر الأفريقياني المنعقد بلندن عام 1900(10). استولت الأنظمة العسكرية الأفريقية على الحكم في العديد من البلدان الأفريقية بعد مرحلة ما بعد الاستقلال، فارتفع عددها من 16 في عام 1975 إلى 23 خلال الفترة من 1983-1989.وقد اتسمت هذه الأنظمة بحكم شخصي يستند على نظام الحزب الواحد[11].

و في نفس المساق، ازدادت النفقات العسكرية بشكل لافت للانتباه على حساب التنمية[12]. وقد عمدت الأنظمة الاستبدادية إلى منهجت سياسة سوء استعمال السلطة فالفريق الممسك بالسلطة، بامتلاكه للقوة و الثروة استطاع البقاء فيها بفضل شبكة من الزبانية الممتدة و المتراتبة، أدت إلى : " سياسة البطن الممتلئ". فالدولة ما بعد الاستقلال في أفريقيا هي تغيير تاريخي للمجتمعات الأفريقية.

اتسم عقدي السبعينيات و الثمانينيات بالعديد من المواجهات المسلحة. و في الوقت نفسه الذي كانت تجري فيه هذه النزاعات أصبحت أفريقيا القارة التي وجد فيها أكبر عدد من اللاجئين الخلاصة أن أفريقيا منذ السبعينيات اجتازت حقبة جميع المخاطر و الإرهاقات

الحكومية، و احتقار لحقوق الإنسان، نشوب التخلف، و حدوث الحروب و المجاعات، إنها عناصر داعمة باستمرار للتشاؤمية الأفريقية.

التحليل الجغراسياسي للكتاب:

يحاول المؤرخ الكونغولي مبوكولو في كتابه أفريقيا في القرن العشرين من خلال القارة المستعمرة أن يعيد قراءة منظومة البحث التاريخي لأفريقيا عبر قراءة مقارنة، من خلال تقديم مسرد تاريخي و جغرافي، حلل فيه الكتاب في تسعة فصول[13] ، أطرها بمؤشرات توضيحية ذات بعد جغرافي تمثلت في أربعة رسوم بيانية حدد فيها نسب القارة مقارنة مع العالم من حيث الأراضي المغمورة بالمياه، و الثروات المعدنية، و السكان، و حجم الإنتاج الصناعي. كما أضاف إلى الكتاب 14 جدولا، و 22 خريطة. تعد أفريقيا من أكثر القارات تفتتا من الناحية السياسية، إذ تضم 54 وحدة سياسية. و قد زاد الاهتمام بالقارة السمراء كمخزن رئيسي لكثير من المعادن الرئيسية و الاستراتيجية كالبترول و اليورانيوم و الكروم و النيكل و النحاس و الذهب و الماس، فضلا عن السلع الزراعية. إن الاهتمام بأفريقيا أدى إلى ظهور معاهد متخصصة و دراسات تفصيلية بتزايد .والواقع أن هناك أربع خصائص للوضع الدولي الذي حصلت فيه الدول الأفريقية على استقلالها و يتمثل فيما يلي:

– سياسة الوفاق التي انتهجتها الدول الاستعمارية و الخوف من حدوث حرب نووية.

– اتساع دائرة الحوار الدولي، و سياسة التوازن بين الكتل المتنافسة.

– أهمية تزايد نفوذ العالم الثالث.

– عالمية الأمم المتحدة ،من خلال تحالف بعض الدول الأفريقية مع الدول الأسيوية.

يقول الباحث الإنجليزي بازل دافيد سن (Basil Davidson)حينما يكتب عن تجارة الرقيق التي قام بها الأوروبيون في القارة الأفريقية، ما نصه: " لم تكن تجارة العرب للزنوج إلا نكبة

خفيفة على أطراف القارة و في داخلها، و لكنها اتخذت معنى جديدا حين شرعت السفن الأوروبية تنقل ألاف الشباب من الداخل و الساحل و تدمي الحياة في القارة

و النخاسة أصبحت على يد الأوروبيين تجارة أشبه ما تكون بالموت الأسود الذي اجتاح أوروبا، فقضى على ما يقرب من ثلث أهلها."[14]. مع 10% من سكان العالم و ما بين 2 % و 3% من الناتج المحلي على المستوى العالمي، و احتواء القارة على 30% من الموارد الطبيعية و 54 دولة ممثلة في هيئة الأمم المتحدة، فإن ثقل القارة الأفريقية على المستوى الدولي يبقى ضئيلا نسبيا. إن تموقع القارة جغرافيا بالقرب من أوروبا و الشرق الأوسط، و ربطها بالغرب فيما فيها الواجهة الأطلسية المطلة على الأمريكيتين، زهاء خمسة قرون من العلاقات المؤسسة و المبنية على العنف و الاستغلال، مما جعل كتاب القارة المستعمرة يقدم لنا هذا الكم الهائل من المعلومات المدعمة بلغة الأرقام و التحليل الجغراسياسي ، في اطار مساءلة جغرافية و حوصلة لمختلف مناطق القارة. ومن الأمثلة التي جاء بها الكتاب ، ما تناوله في الفصل حيث خصصه للزائير، و إثيوبيا، و إفريقيا الجنوبية، [15] و بين حجم التناقضات التي تحدد نوعية الطرح و المساءلة في ثنايا صفحات الكتاب، موضحا الإرث التاريخي القديم المتمثل في الاستعمار الأوروبي الذي ساهم في نقل الأيديولوجيا المتوازنة ما بعد الاستعمار.

و من جهة أخرى بروز قوى تحديثية من خلال سياسة التعمير و البناء و التصنيع مثل أثيوبيا، وتبنيها الثورة الزراعية[16]. تواصلت مسيرة التنمية في أفريقيا زهاء ربع قرن بعد الاستقلال في اطار التوازنات الدولية و التحولات الداخلية التي شهدتها القارة من الوطنية إلى الانفصالية، و انبعاث سلط جديدة تتحكم فيها قوى عسكرية في إطار سياسة الانقلابات العسكرية محاولة الحفاظ على الأنظمة المكتسبة لمرحلة ما بعد الاستعمار و المحافظة على امتيازاتها المكتسبة و الدفاع عن مصالح النخب الحاكمة و الأقلية البرجوازية في الدولة تحت

شعار مواصلة التنمية الاقتصادية و الشرعية الثورية، و قدم لنا مبوكولو مثال حول مدغشقر و السنغال بالمقارنة مع غينيا[17].

يطرح الكتاب موضوع الأقليات الأثنية التي تشهدها القارة و التي هي في خضم الصراع السياسي المعاصر. كما أشار إلى مصطلح الاشتراكية الأفريقية كموضة لمرحلة ما بعد الاستقلال، ولكنها كمفهوم إيديولوجي تخص القارة على غرار الماركسية الأفريقية. و في السياقات التاريخية المقدمة من طرف المؤرخ مبوكولو أبرز لنا من خلال كتاباته التحليلية نزعته التاريخانية ، من دون أن يعني هذا تجاهله للمقاربات المعرفية للعلوم الإنسانية و الاجتماعية الرديفة، و في رأيه ،فإن أبعاد نظام الأبارتيد[18] لا علاقة له بالاقتصاد و الثقافة كما هو وارد في عديد المؤلفات الأوروبية، بل جاء في صلب تحليل كتابه [19] مثيراً مسألة التاريخ المعقد لأفريقيا الذي يتجسد في الإرث التاريخي لمجتمعاتها الحالية، و سياسة التحديث المتبعة في معظم الدول الأفريقية بالمقارنة مع تناقض مستمر للتقاليد السائدة في القارة.

عالج كتاب مبوكولو تاريخ القارة الأفريقية و ركز على هدفين إجرائيين هما: تحليل الأوضاع من الداخل بواسطة رصد المحطات الكبرى للمناطق الجغراسياسية للقارة معتمدا على الأحداث التاريخية البارزة بطريقة تحليلية، ومن جهة أخرى طرح القضايا التي تعاني منها القارة وسط التحولات السياسية و الاقتصادية و الاجتماعية، و سجل مسألة هشاشة تعامل النظام الاستعماري مع الأفارقة. ففي الفصل الأول رصد المؤلف الخطوط العريضة السياسية منها و الاقتصادية لـ أربعة و خمسين دولة أفريقية معتمدا على مسرد جغرافي طبوغرافي لهذه الدول مركزا الحديث على الإرث التاريخي، و ثقل الحقبة الاستعمارية التي عاشتها القارة زهاء قرون.

و خلص في نهاية الفصل إلى تبيان تأريخ أفريقيا المعاصر من حيث الملامح و التوجهات الجديدة [20].و انتقل في هذا الفصل إلى دراسة خصائص الهيمنة الاستعمارية و دورها في توقف معالم النمو و التطور للقارة بفعل سياسة الاستغلال البشع للإنسان و الثروة.

حاول مبوكولو في الفصول الخمسة تقديم تحاليل تاريخية للمناطق الجيوسياسية ، مركزا على التجربة الكولونيالية، و ما قبلها و التي سجلت عدة تغييرات داخل القارة. في البداية يشير إلى الأسباب الرئيسة للتأخر في المجال الاجتماعي و السياسي ، مع عدم قدرة النخبة السياسية و البرجوازية التي احتلت مراكز القوى داخل النظام الاستعماري السابق و محاولة الحفاظ على امتيازاتها في القيادة و التسلط من دون التفكير في مجالات النهوض و التنمية، على غرار أدوارها السابقة المتمثلة في قيادة الحركات التحررية بعد نهاية الحرب العالمية الثانية في مختلف المستعمرات. جدير بالإشارة أن المؤلف و هو ينقل بنا من الفصول السابقة إلى الفصلين الأخيرين[21] ليفتح مجال تنظيم الطبقة العاملة و الفلاحين الذين لعبوا أدوار لا يستهان بها في التأثير و النضج السياسي للحقائق الاجتماعية و الاقتصادية.

إن قضايا الأثنية و الوطنية و مشكل الدولة الوطنية برزت بوضوح في خطاب مبوكولو. في هذه الفصول يتضح جليا أن الكاتب وسع نظرته التفسيرية في مجال التاريخ و دخل مجال الأنثروبولوجيا السياسية، حيث قدم نماذج لمسألة الدولة في أفريقيا التي يستمر السجال عنها بأطروحات متناقضة ،اتخذت مسار التقدم و التقليد بسبب الإثنيات و الإقليمية، وهو أمر أفضى بالقارة إلى حدوث عديد الانقلابات العسكرية ، و أن مشروع الدولة الوطنية ظل قائما و معلقا في آن واحد ، حيث لا يزال حلم و طموح تناشده الجماهير الأفريقية.

إن الانقلابات العسكرية المتكررة في أفريقيا و أحادية الحزب الحاكم، أفرزت أيديولوجية النمو و التقدم الموهوب ، مما أدى بإقصاء النخب للحفاظ على امتيازات الطبقة الحاكمة و

البقاء على أشكال النظام القديم بالقوة العسكرية لخدمة مصالحها ،قامت هذه الفئات بتأجيج النعرات الطائفية و الأثنية مما أدى إلى ديمومة الأزمة. إن مسألة تحديد و بناء الأمة في أفريقيا يظل قائما لحد الساعة و طموح منتظر، لأن الاستقلال السياسي و الاقتصادي لا يزال بعيد ، وقد فسر مبوكولو هذه العراقيل إلى طبيعة النظام الإمبريالي الخارجي الذي يقوم بتصدير الأسلحة للأطراف المتنازعة و يقدم المساعدات المالية و التقنية تحت غطاء المساعدة بالمقابل. لم تنجو القارة من الصراعات الأيديولوجية التي تبناها الاتحاد السوفياتي سابقا و الصين الشعبية . وطرح الكاتب عديد الأسئلة حول ماض و حاضر و مستقبل أفريقيا في ظل هذه الصراعات و التكتلات، و أن مسألة الاستقلال الحقيقي للقارة يظل عالقا.

من هنا كانت دلالة هذا الكتاب من خلال أفريقيا و هي تعيش عصر التحول الاجتماعي و تواجه ذات المشكلات. يستتبع هذا الكتاب و في اطار مقاربة للمفاهيم مصالح الجماعات و الطوائف المختلفة، و لن تجد أفريقيا الاستقرار إلا في اللحظة التي يكون فيه ا الحوار الديمقراطي وسيلة للقوى و المؤسسات و الأفراد لإدارة الأزمات و التفاعلات بينها. لقد أدخلت الحقبة الاستعمارية إلى خلق فوارق متعددة، ذلك أن كلا من بريطانيا و فرنسا و البرتغال أدخلت إلى مستعمراتها لغتها و نظمها التشريعية و التعليمية. و من الأهمية بمكان دراسة الصور المختلفة و المتباينة التي لجأت إليها القوى الاستعمارية في استخدامها للنظم السياسية التقليدية في أراضيها، فقد كان لها تأثير واضح لصون هذه النظم.

أنشأت الإرساليات التبشيرية خلال القرن التاسع عشر لنشر مدارسها الخاصة بهدف التبشير و التنصير و تخريج جيل من المعلمين يكفل العملية التعليمية التبشيرية. أفريقيا قارة المزايدات و التناقضات، هكذا صورها مبوكولو في كتابه الجامع و المختصر في آن واحد، عملاقة بأراضيها التي تمثل 22% منها أراضي مغمورة بالمياه. من شمال الجزائر إلى الكاب

جنوب القارة تقطع مسافة 7500 كلم، بـ 5 حزم ساعية، و مع هذا يظل تعاملها التجاري العالمي يقدر بـ 4%.لماذا قارة الفسيفساء؟ هل التنوع الثقافي هو الذي أعطى للقارة الأفريقية هذا التميز؟ ماهي الأطر التي يمكن بواسطتها ربط فضاءات التنوع الطبيعي
و البشري بعملية النمو؟ إنها أسئلة حاول إليكيا مبوكولو الإجابة عنها في هذا الكتاب.

انطوت السياسة الفرنسية و السياسة البريطانية على عدد من التناقضات .لقد سعى الفرنسيون إلى استيعاب الإنسان الإفريقي داخل ثقافتهم، و دربوا نخبة أفريقية لهذا الغرض، و سعى البريطانيون إلى إنشاء مؤسسات أفريقية وطنية ، و دربوا فئة من التنفيذين للعمل وفق الأسلوب الغربي البيروقراطي مما أدى إلى تشجيع هذه النخبة إلى التطلع لتشغل وظائف أرقى مما كانت الحكومة الاستعمارية مستعدة لمنحها لهم، و ادى الإحباط عن هذا إلى ميلاد الحركات الوطنية التحررية.

خاتمة:

تبقى أهمية الكتاب بارزة في توضيح المشاكل العالكة التي تشهدها القارة لمرحلة ما بعد الاستعمار ، منها قرارات الدول الأفريقية في الاجتماع الثاني لمنظمة الوحدة الأفريقية الذي عقد في القاهرة عام 1964، و أصدرت قرارا يعترف بالحدود الموروثة عن الاستعمار، و كان هذا في غياب بديل متوفر و مقبول بالإجماع. إن فشل الأمم الأفريقية في مواجهة مسألة القومية و فشل القواعد القانونية و الأخلاقية الدولية في التوسط بين الدول المتنازعة [22]، مكن الأجانب من التدخل و فرض إرادتهم، و هو ما شجع اللجوء إلى السلاح. إن هشاشة دول أفريقيا ما بعد الاستعمار الذي دلت عليها الانقلابات العسكرية التي غيرت ثلاثة أرباع الأنظمة منذ عام 1965.إن ما كانت تسعى إليه الدول الأفريقية قبل التحرر هو رد الاعتبار السياسي و الاقتصادي و الثقافي، و إذا كان رد الاعتبار السياسي قد تحقق فلن يقل عنه أهمية رد الاعتبار

الاقتصادي و الثقافي، و إزالة الصبغة الأوروبية و تأكيد الشخصية الأفريقية أو إعادة أفرقة أفريقيا. و لعل أبرز مظاهر السعي إلى إعادة الصبغة الأفريقية من الناحية الثقافية هي إعادة كتابة التاريخ الأفريقي بأيدي الأفريقيين. خلف الحكم الاستعماري في أفريقيا وراءه رقعاً متداخلة التي أقسمت الأمم الأفريقية على المحافظة على حدودها.

إن الجغرافيا و هي تلامس ثنايا كتاب مبوكولو ، تظل في كامل مؤلفه، مصدرا للتاريخ . ولعل، أهم ما يلفت النظر، و كمثال على عملية استخراج المعلومات المفردة من هذا المؤلف، هو ما استخرجه من أرقام و إحصاءات دللها على شكل جداول ومسرد جغراسياسي ، استقاها من عديد الدراسات. إن كتاب أفريقيا المستعمرة، يمثل نقطة مهمة في مسار دراسة تاريخ إفريقيا الحديث و المعاصر ، على أن الدارس ، في هذا الكتاب الذي يقدمه مبوكولو للدخول في عالم تاريخ أفريقيا الحديث، يجد القارئ و الباحث نفسه أمام كم هائل من المعلومات تلامس الظواهر السياسية و الاقتصادية و الاجتماعية التي يلتقطها الكاتب في مؤلفه، يحتاج إلى توسيع بعض عناصره خاصة ما يتعلق بالتنمية و التخلف و الأمراض و الصراعات و التكتلات.

تمتد العلاقة بين أوروبا وإفريقيا في أعماق الزمان، على ضفاف ثلاثة قرون أو أكثر من الاستعمار المباشر، وعلى آماد المكان أيضًا في خارطة الاحتلال التي الفرنسي هي الأكبر بين الدول والإمبراطوريات التي تقاسمت القارة السمراء منذ مؤتمر برلين، سنة 1884، والذي وزَّع القارة السمراء بين نفوذ قوى دولية استقرت فيها قبل ذلك بقرنين أو أكثر .وفي الوجدان والثقافة والتاريخ والهوية، فإن لفرنسا في إفريقيا حضورًا قويًّا مؤثرًا، صنع أغلب الماضي القريب، وما زال مؤثِّرًا في المستقبل، ممسكًا بزمام الحاضر.وقد تأسَّس الإرث الاستعماري والنفوذ الفرنسي في إفريقيا على ركائز أساسية، أهمها: الإدارة السياسية والتحكم الاقتصادي

والاستلاب الثقافي. لا يمكن فصل حاضر النفوذ الفرنسي الإفريقي عن حقبة الاستعمار التي تأسس في ظلالها، كان له صدى ونتيجة حتمية لسياساتها في تلك الفترة المؤلمة.

الإحالات:

(1) تعد هذه الدراسة ترجمة مختصرة و مراجعة لكتاب المؤرخ الكونغولي إليكيا مبوكولو (Elikia M'Bokolo) وهو من مواليد سنة 1944في كينشاسا (Kinshasa) عاصمة أكبر مدن جمهورية (الكونغو الديمقراطية (زائير سابقاً. و العنوان الأصلي للكتاب باللغة الفرنسية هو:

L'Afrique au XX siècle, le Continent convoité, Alger, office des publications universitaires, Etudes Vivantes, Paris, 1980.281p.

تعد ملاحظات و انطباعات هذا الكتاب الأولى من نوعها باللغة العربية بعد صدور دراسات حول الكتاب باللغة الفرنسية أهمها:

-Chrétien Jean-Pierre, M'Bokolo (Elikia), [compte-rendu], revue d'histoire, Année 1986,, Volume 10 Numéro 1, pp. 144-145.

-Michel, Marc, M'Bokolo (Elikia), L'Afrique au XXe siècle. Le continent convoité,[compte-rendu],Revue française d'histoire d'outre-mer, Année, 1990 Volume 77, Numéro 286, pp. 114-115.

-Abel, Kouvouama, Elikia M'BOKOLO : Le Continent convoité. Éd. Etudes Vivantes, Paris, 1980, 281 p. Idéologies et politiques, Volume 6, numéro 1, 1982.

إليكيا مبوكولو أستاذ في تاريخ أفريقيا بالمعهد الفرنسي للدراسات في العلوم الاجتماعية بباريس ثم مديرا له منذ العام 1992،من إنتاجه التأليفي ما يلي:

- Noirs et blancs en Afrique équatoriale, la société côtière et la pénétration Française vers 1820-1874,1981.
- L'éveil du nationalisme, l'est africain au XIXe au XXe siècle, 1988.

Afrique noire : histoire et civilisations jusqu' au XVIIIe siècle, 1995.

- L'Afrique et le XXe siècle : dépossession, renaissance, incertitudes, 2000.
- Au cœur de l'ethnie, ethnie, tribalisme et Etat en Afrique, éd, la découverte, 2001.

(2) هيلين داليدا، توبور، أفريقيا في القرن العشرين(تعريب: صباح ممدوح كعدان)،دمشق: وزارة الثقافة، منشورات الهيئة العامة السورية،2013.ص 5.

(3) ينظر: أحمد، طاهر، أفريقيا فصول من الماضي و الحاضر، القاهرة: دار المعارف، 1979، ص 174.

(4) حول مؤتمر برلين أو مؤتمر الكونغو، يراجع:

Crowe, Sybil E. (1942). The Berlin West Africain Conference, 1884–1985. New York: Longmans, Green.1981.

Elikia , M'Bokolo, *Afrique noire, histoire et Civilisations*, Paris, Hatier-AUPELF, 1992, Tome II, p. 278.

(5) القوزي، محمد عي، في تاريخ أفريقيا الحديث و المعاصر،ط 1،بيروت: دار النهضة العربية،1426هـ/2006م، ص 99.

(6) Hélène d'Almeida-Topor, L'Afrique du 20e siècle à nos jours, Paris Éditeur : Armand Colin, 2013.p.20.

أشارت الباحثة الفرنسية في كتبها أفريقيا في القرن العشرين إلى يومنا هذا ،في القسم الأول : القارة المسيطر عليه، في الفصل الأول ، الموسوم بـ تقسيم جغراسياسي مفروض. و أيضا:

Deschamps, Henri. - Histoire générale de l'Afrique noire, de Madagascar et des archipels. Paris, PUF, 1973.

(7) Elikia M'Bokolo, op.cit, p.39.

(8) أسس اتحاد المستعمرات الفرنسية في أفريقيا الغربية على مراحل ما بين 1895-1904، و أصبح يتكون من ست مستعمرات هي: السنغال و غينيا الفرنسية و الداهومي و أعالي السنغال، النيجر و موريتانيا. و غداة الحرب العالمية الثانية أعيد تنظيمه و أصبح يضم ثماني مستعمرات هي: السنغال، غينيا الفرنسية، الداهومي، السودان الفرنسي،ساحل العاج،النيجر، فولتا العليا،موريطانيا، و استبدل بالجماعة الفرنسية في عام 1958. للمزيد ينظر:

Josep-Roger de Benoit, la balkanisation de l'Afrique occidentale française, les nouvelles Editions Africaines, Dakar- Abidjan-Lomé, 1979.

(9) تأسست جريدة المصباح سنة 1904 بوهران، من طرف حركة الشبان الجزائريين التي التفت في وهران و تلمسان بقيادة **العربي فخار**(1869-1932) و أخيه **بن علي** أول دكتور جزائري في الحقوق، لم تعمر هذه الصحيفة سوى عام واحد. للمزيد من المعلومات حول شعار الجريدة و حركة الشبان، ينظر:

-Ageron, Ch.-R. (1964). Le mouvement « Jeune-Algérien » de 1900 à 1923. Études Maghrébines Mélanges Charles-André Julien. Paris: PUF, 217-243.
- Djeghloul, A , « El Misbah, un journal algérien en 1904 », Dans Éléments d'histoire culturelle algérienne, Alger : Coll. Patrimoine, Enal,Alger,1984,pp.77-78.
- Ihaddaden, Z. (1983). Histoire de la presse indigène en Algérie : des origines jusqu'en 1930. Alger : Enal,168.
- Mérad, A. (1964). La formation de la presse musulmane en Algérie (1919-1939). Revue de l'Institut des Belles Lettres Arabes, 105(1), 9-27.

(10) من أجل فهم موضوع الوحدة الأفريقية ، بإمكان القارئ الرجوع إلى: أمين، أسبر، مسيرة الوحدة الأفريقية، ط 2، بيروت: دار الكلمة للنشر، 1983. و أيضا: القوزي، المرجع السابق، ص ص 314-374.

(11) من أشهر الانقلابات العسكرية: الكونغو(1970)، مالي(1974)،مدغشقر(1975)،بنين(1977)،جمهورية أفريقية الوسطى(1986).

(12) Bangoura ,Dominique ,Les Armées africaines (1960-1990),paris,CHEAM,1992.

(13) الفصل الأول: مسرد سياسي و جغرافي تفصيلي للدول الأفريقية. الفصل الثاني: الإرث التاريخي. الفصل الثالث: أفريقيا الشمالية. الفصل الرابع: أفريقيا الغربية. الفصل الخامس : أفريقيا الوسطى. الفصل السادس: أفريقيا الشرقية. الفصل: الفصل السابع: المناطق الحساسة. الفصل الثامن: أفريقيا السياسية: دول و أيديولوجيات. الفصل التاسع: أفريقيا و العالم.

(14) سعودي، محمد عبد الغني، قضايا إفريقيا، سلسلة عالم المعرفة، رقم 34، الكويت: المجلس الوطني للثقافة و الفنون و الآداب، 1980، ص 83.نقلا عن:

Basil. Davidson, Africa In Modern History: The Search For A New Society, 1978.

(15) .M'Bokolo (Elikia),op.cit, pp.156-163

(16) .Ibid, pp. 203-209

(17) Ibid, pp.186-191

(18) هو نظام الفصل العنصري الذي حكمت من خلاله الأقلية البيضاء في جنوب أفريا من عام 1848 و تم إلغاء نظام الأبارتيد (A partheid) سنة 1991. والكلمة معناها نبذه،همشه،حقره في لغة الأفريكانو.

(19) .M'Bokolo (Elikia), op.cit, pp.223-225

(20) Ibid,pp .13-32.

(21) يقصد الفصل الثامن الموسوم بـ أفريقيا السياسية: دول و أيديولوجيا تطرق المؤلف لمسألة الدولة في أفريقيا من خلال تحديد المصطلحات التالية: إثنيات، الوطنية، الدولة. وركز على هامش هذه القضايا على مسألة الانقلابات العسكرية التي شهدتها معظم دول القارة باستمرار. ينظر: .Ibid,pp.241-262

أما الفصل التاسع و المعنون بـ أفريقيا و العالم، فقد تناول فيه الرهانات التي تواجه أفريقيا و القوى الكبرى المتنافسة على مناطقها ، من بينها الصين. و ختم الفصل بأفريقيا و الاقتصاد العالمي. للمزيد راجع: Ibid,pp.263-278.

(22) بيركيت هابتي، سيلاسي، الصراع في القرن الأفريقي،(ترجمة: عفيف الرزاز)،ط 1 ، بيروت: مؤسسة الأبحاث العربية، 1980.،ص 17.